الثقافة الهندية كما صورها البيروني في "كتاب الهند"

د. أشفاق ظفر*

{ تربط الهند والعالم العربي علاقات ثقافية و تجارية و علمية منذ العصور القديمة. لو درسنا تاريخ العلاقات بين شبه القارة الهندية و جزيرة العرب لوجدنا أن الهند كانت تسد منذ ذلك الوقت معظم احتياجات الناس في الجزيرة العربية مثل المواد الغذائية والمنسوجات و مواد الرخاء والمعيشة النعيمة كالحرير والمجوهرات. وكانت تعد الهند من البلدان المتقدمة و تعرف لعلومها و فنونها و خبرة أهلها في علم النجوم. و يقال " في عهد الإمبراطور شاه جاهان شكل الحجاج الهنود أكبر حركة مرورية للناس عن طريق البحر١ ". و قد أشار كثير من الكتاب والمؤرخين إلى نبوغ الهنود في العلوم والحساب و الفلك. كما نجد أبا عثمان الجاحظ يعترف كمال الهنود في العلوم قائلا في كتابه "البيان والتبيين":اشتهرت الهند بالحساب، وعلم النجوم وأسرار الطب و النجر و التصاوير و الصناعات الكثيرة العجيبة".٢ }

إن العرب قاموا بترجمة كتب العلوم والفلسفة من اليونان وبلاد فارس والهند. وجاء عدد كبير من علماء الهند والفلاسفة إلى بغداد في عهد العباسيين، وشاركوا في حركة ترجمة كتب العلوم والفنون والفلسفة والحكمة والطب من اللغة السنسكريتية إلى اللغة العربية، كما توجه بعض العلماء العرب إلى الهند لتعلم الرياضيات وعلوم الفلك والفلسفة. ومن بين هولاء العلماء العرب الفذة الذين سافروا إلى بلاد الهند

* كاتب حر، نيودلهي، الهند

لدراسة العلوم والثقافة الهندية ومشاهدة التطور الفني والعقلي في حدودها، أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني.

وهذه المقالة تركز على هذا العالم الجليل الذي قضى سنوات طويلة في الهند وشاهد ثقافتها وتقاليدها. وعرف الهند خارج حدودها عبر كتابه "كتاب الهند". وهذا الكتاب يعد سجلا محكما لجميع نواحي الحياة في الهند آنذاك.

مولد البيروني ونشأته: ولد "محمد بن أحمد الخوارزمي"، المعروف بأبي الريحان البيروني في ٣ من ذي الحجة ٣٦٣هـ =٤ من سبتمبر٩٧٣م في قرية من ضواحي مدينة "كاث" عاصمة دولة "خوارزم وهى الآن تابعة لجمهورية أوزبكستان في آسيا الوسطى وقد سميت هذه المدينة باسم "البيروني" تخليدًا لذكراه. وقد تلقى "البيروني" تعليمه في بلدته، حيث حفظ القرآن، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وشيئًا من الفقه والحديث مثل غيره من الطلاب الذين يبدؤون حياتهم العلمية. ثم اتجه "البيروني" إلى دراسة العلوم الطبيعية والرياضيات، بعد أن وجد في نفسه ميلاً إلى ذلك، فتلمذ على يد "أبى نصر منصور بن على بن عراق"، وكان عالمًا مشهوًرا في الرياضيات والفلك، وعمل تحت إشرافه في مرصده الفلكي. ظل البيروني في موطنه حتى تجاوز العشرين من عمره، ثم رحل عنها، واتجه إلى مدينة "الري" سنة (٣٨٤ هـ)، القريبة من "طهران"، وفى أثناء إقامته بالرى التقى بالعالم الفلكي "الخوجندى" المتوفى سنة (٣٩٠هـ)، وأجرى معه بعض البحوث الفلكية على أحد الجبال الموجودة في "الري. ثم انتقل إلى "جرجان" وحظى برعاية ملكها "قابوس بن وشمكير"، وكان أديبًا كثير الحفاوة بالعلماء، وفى أثناء إقامته التقى بأكبر أساتذته الطبيب الفلكي "أبى سهل عيسى بن يحيى" المتوفى سنة (٣٨٩هـ)، وشاركه في بحوثه و تعلم منه أسرار العلوم والفنون.٣

في بلاط السلطان محمود الغزنوي:

ثم أجاءه القدر إلى "غزنة"، وهي الآن "كابل" عاصمة "أفغانستان" وعاش في بلاط السلطان "محمود الغزنوى" مشتغلاً بالتحقيق في الفلك والفيزياء والتعدين

وغيرها من العلوم والفنون وقد رافق البيروني في معظم فتوحاته العسكرية في بلاد "الهند" التي بلغت سبع عشرة مرة، وقد اغتنم "البيروني" فرصة وجوده في "الهند" باحثا عن كنوزها العلمية وثقافتها المتنوعة بكل الدقة والتركيز، وتعلم اللغات الهندية خاصة اللغة السنسكريتية، ودرس النواحي الدينية والفلسفة الشعبية، فنقل إلينا كثيرًا منها، في كتبه ومؤلفاته، وخاصة في كتابه الذي أفرده للحديث عن "الهند" باسم "كتاب الهند في تحقيق ما للهند". وبعد وفاة السلطان "محمود الغزنوي" سنة (٤٢١هـ) خلفه ابنه "مسعود"، وكان محبًّا للعلوم والثقافة، يشجع العلماء ويوفر لهم كل ما يحتاجون إليه، ووجد "البيروني" في بلاطه كل تقدير وثناء، فأكب على التأليف وظل "البيروني" محل التقدير والتصنيف، وأهداه أكبر كتبه في الفلك و الرياضيات الذي أطلق عليه "القانون المسعودي". وكان البيروني مجيدا للغة العربية، إلى جانب لهجته الأم الخوارزمية ولغته الأولى الفارسية ثم اضاف إلى ذالك فيما بعد، اللغات السنسكريتية واليونانية والسريانية والعبرية. ونبغ في الرياضيات وعلم الفلك. ويتم إعتباره عالما ولغويا ومؤرخا ورياضيا وجغرافيا وطبيبا وصيدليا وفيلسوفا. وعلى حد تعبير "سميث" في كتابه "تاريخ الرياضيات"، كان البيروني من ألمع علماء زمانه في الرياضيات، وأهل الغرب مدينون له بمعلوماتهم عن الهند.٤

و**بحوثه العلمية: مؤلفات البيروني**

قام البيروني بتأليف عدة كتب وبلغت مؤلفات البيروني أكثر من مأة وأربعين كتابًا بين صغير وكبير في مختلف فروع المعرفة. ومن اشهرها:

١- "**الآثار الباقية عن القرون الخالية**"، وهو يبحث في التقاويم الفلكية والأعياد عند الشعوب والأديان المختلفة في ذلك الوقت، كاليونان والرومان والفرس والقبط، والنصارى واليهود وعرب الجاهلية.

٢ - "**الجماهر في معرفة الجواهر**"، وهو كتاب يبحث في الفلزات والمعادن وبخاصة الأحجار الكريمة.

٣- "**القانون المسعودى في الهيئة والنجوم**"، وهو يتألف من (١٢) فصلاً يقدم فيها "البيروني" إسهاماته في علم الفلك كله، مع حساب التوقيت وحساب المثلثات والرياضيات والجغرافيا.

٤- "**التفهيم لأوائل صناعة التنجيم**"، وهو موسوعة تعرض لمصطلحات الهندسة والحساب والفلك والجغرافيا والأوقات، وتصف الأجهزة الفلكية، و طبع الكتاب مع ترجمة إنجليزية له في" لندن" سنة (١٩٣٤م).

٥- **تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن**"، وهو كتاب في الجغرافيا حيث يقوم بتحديد العروض الجغرافية والاختلافات في تحديد أطوال المواضع، و طبع الكتاب في "تركيا".٥

بالهند: إهتمامه

يوصف البيروني بأنه مؤسس علم الهنديات وكان أول عالم مسلم قام بزيارة الهند لدراسة تقاليدها وعقائدها ومشاهدة أعيادها وأعرافها. وهذا العالم الجليل يوصف أيضا "بالأنثر وبولوجي الأول للنظام البرهمني و الشبكة العقائدية التي كانت تشمل كل شيىء رائج في حدود البلاد. إن التحقيق الرائع الذي قدمه الينا البيروني هو كتابه "**كتاب الهند في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة**" الذي صنفه بعد أسفاره البعيدة وتجاربه العميقة في الإجتماع الهندي وثقافتها القديمة الشامخة. قد سجل البيروني في هذا الكتاب كل شيء يهم في أي ثقافة وحضارة. وقد قسم هذا الكتاب إلى ثمانين بابا.

إن الباب الأول يشتمل على المشاكل التمهيدية التي واجهها الكاتب في فهم المجتمع الهندي وإدراك الحقائق الموجودة في نسيجه، ونهجه الخاص نحو تعلم جوهرة الهند.

ومن الباب الأول إلى الباب الثامن، قد أحاط بالفلسفة الهندية والدين الهندوسي بالتفصيل.

ومن الباب التاسع إلى الباب الحادي عشر، قد بحث في نظام الأسرة وقواعد السلوك الديني المروجة والمعمولة في الاجتماع .

ومن الباب الثاني عشر إلى الباب الرابع عشر، قد ذكر عن النصوص الدينية والعلمية.

ومن الباب الخامس عشر إلى الباب السابع عشر، قد ذكر طرق الهنود في الكيمياء والعلوم.

ومن الباب الثامن عشر إلى الباب الثاني والستين ، قد أبلغ المعلومات حول النظام الاجتماعي والطقوس.

ومن الباب الثالث والستين الى الباب التاسع والسبعين، أخبر البيروني مفصلا عن الجغرافيا الهندية والفلك والتاريخ والمهرجانات.

وقد خص الباب الأخير "الثمانين" لذكر الفلك وحركات النجوم فيه.كما أن البيروني كان بنفسه خبيراً للعلوم الفلكية. فقد بحث بالتفصيل كمال الهنود في العلوم والحركات الفلكية التى يتبعها العلماء الهنود.٦

قضى البيروني وقتا طويلا في الهند باحثا في الثقافة والدين واللغة من ١٠١٧ حتى ١٠٣١م. ونتيجة لذلك قام البيروني بأول عمل ميداني للإثنوغرافية حول موضوع الثقافة والدين الهندوسي في الهند. فإن تحقيقه وتقديمه على هذا الموضوع يثبت أن البيروني احاط بجميع أنحاء الثقافة الهندية بصفة مراقب موضوعي للهند. ورغم انتمائه وعلاقته الوطيدة بالبلاط الغزنوي، سجل البيروني بعض نهب أكثر فظاعة من قبل السلطان محمود الغزنوي خاصة في "ماثورا" و"سومناث" قائلا " إن السلطان محمود دمر تماما ازدهار البلاد، وخلق الكراهية للمسلمين بين السكان المحليين، وتسببت الغزوات تراجعا كبيرا في العلوم الهندية فى تلك الأجزاء من البلاد التي غزاها" مقارنا مع المدن التي لا يمكن الوصول لنا إليها حتى الآن.٧

ومن خصائص البيروني, أنه أثناء تصريحاته وبياناته عن العقائد والأديان والأعراف الرائجة في الهند، لا يصل إلى نتيجة معينة ولا يصدر حكما على الثقافة الهندية أو العقيدة الهندوسية، وإنما يتحدث من خلالها عن تطوير الطرق والأدوات لدفع الحوار بين الأديان و التسامح الديني. وفي مقدمة "كتاب الهند" يكتب البيروني نفسه "أن النية وراء هذا السعي الحوار بين الإسلام والديانات الهندية، ولا سيما الهندوسية وكذلك البوذية". ٨

في الباب الثاني عشر لكتاب الهند , ألقى البيروني الضوء على العقيدة الهندوسية والكتب الدينية المعروفة أمثال " بورانا" و"فيدا" و قد ذكر عن أربعة كتب "فيدا" و ثمانية عشر "بوران" وعشرين " إسمرتي" بالاضافة إلى "مهابهاراتا". وقد خص بابا للذكر عن "مها بهاراتا". ووفر لنا معلومات دقيقة عنه ، وحتى أنه قد ذكر عن كاتبه العظيم " فياس". وقد صرح في هذا السياق أن هذا الكتاب هو سجل يومي للتنازعات والحرب بين فئتين من الأشقاء. وهم "كورو" و"باندو" من الطبقة الحاكمة في ذالك الزمان. و أفاد أن هناك مأة ألف قطعة من الدعاء و المناجات و تسمى كل واحدة منها "برب". ٩

في الباب الثامن عشر من الكتاب، ذكر البيروني عن "رام" و"رامائنا"و " راونا" مشيرا إلى قصة "سيتا" والحرب بين "رام وراونا" وقد أشار خاصة في هذا السياق إلى سلسلة جبل يسمى "كاشكندها" وهي تعرف عامة "بجبل القرود".ويعتقد أن ملك القرود يخرج مع جماعته كل يوم وله أماكن الجلوس الخاصة. ويوفر الناس لهم هناك الأرز المطبوخ على أوراق الأشجار الكبيرة. ويعتقد أيضا أن القرود هناك يسمعون كلام "راما" للذين ينصتون إليهم وإنهم يهدون من يضلون الطرق في الغابات .

وقد شاهد البيروني في ذكر تفاصيل قصة "رام" و"سيتا" على "سيتو سمودرم" كجسر على البحر. وقال إن الهندوس، يعتقدون أن "رام" كان وضع قطعة من الجبل في البحر للوصول إلى بلاد "سريلانكا" للقتال مع "راونا" لإطلاق سراح

زوجتها "سيتا". وقطع "رام" الجسر بسهم له أثناء عودته من "سيريلانكا". وهذا المكان لايزال واضحا حتى الآن. ١٠

وقد عقد البيروني بابا طويلاً للكلام على عقيدة التناسخ عند السكان المحليين. وأفاد: أن الإيمان بالتناسخ شعار العقيدة الهندية كما أن كلمة التوحيد شعار الإسلام، وكلمة التثليث شعار النصرانية. ونقل عن كتاب (باتانجلي) مقتبسات لإثبات عقيدة التوحيد عند الهنود. كما نجد:

"ويعتقد الهندوس فيما يتعلق بالله أنه هو واحد أبدي، من دون بداية ونهاية، ويعمل بإرادة حرة، هو سبحانه وتعالى، حكيم حي، ويعطي الحياة والعيش ، وهو حاكم، وله سيادة فريدة من نوعها وراء جميع الشبه والتغاير، وهو عليم خبير". ١١

قد قال البيروني في موضع آخر في كتاب الهند:

"إن عبادة الأصنام هي نوع من الإرتباك. وإنها حصريا سمة من سمات عامة الناس وهي الآثار تكريما لبعض الأشخاص كالأنبياء، والحكماء، والملائكة، وتبجيلا لهم، وروجت هذه الاشياء للحفاظ على آثار هذه الشخصيات في ذاكرة عامة الناس بعد غيابهم أو وفاتهم". ١٢

قواعد اللغة والأدب:

قد ناقش البيروني تطور قواعد اللغة والمعلمات الشعرية في الهند. وفي هذا السياق قد ذكر خلفية وراء تطوير قواعد اللغة والأدب والمبادىء الادبية في الهند قائلا:

"يروي الناس "كان هناك ملك يسمى "سمل واهن" في اللغة العامية او "ستواهن" في اللغة الفصحى، كان يوما من الأيام يلعب مع ملكاته في بركة قصره. وقال لإحدى ملكاته "مودا كام ديهي" يعني "لا تدشن الماء علي". ولكن سمعت الملكة هكذا "مود كام ديهي" يعني "إيتي بالحلويات". فذهبت وأحضرت الحلويات. فغضب الملك. وأصبحت غاضبة أيضا، وبدأ الجدل بينهما. ووفقا للتقاليد الهندوسية، انعزل الملك في زاوية من القصر وترك كل شيء وتنحى عن الأمور . فأتى إليه

رجل دين هندوسي ووعد أنه سيضع قواعد للغة وسيعلم الناس النحو والقواعد لجعل اللغة سهلة الفهم والإدراك، فرضي الملك. عاد رجل الدين يصلي "ماهاديف" (واحد من الآلهة الهندوسية). ظهر "ماهاديف" وعلم رجل الدين بعض أسباق النحو والقواعد. وهكذا وضع رجل الدين قواعد اللغة كما وضع أبو الأسود الدؤلي قواعد اللغة العربية. وجاءت قواعد اللغة في الهند إلى الوجود".١٣

العروض والأوزان الشعرية:

بعد ذكر قصة وجود القواعد، يخبر البيروني أن هناك أساليب و طرقا خاصة لنظم الشعر في الأدب الهندي وهو أمر مفيد للممارسة الشعرية، ويقول:

إن النظام لتقويم الشعر الهندي هو نظام مثل عروض الشعر العربي لدينا. وهذا هو جزء أساسي للأدب الهندي و قد دونت معظم الكتب الهندية في الأساليب الشعرية. والسبب وراء الكتابة في الأسلوب الشعري هو أن الكتب في النظم الشعري هي سهلة للحفظ والرواية. ويكفي لها أن تحفظ و تذكر عند الحاجة وخاصة عندما تعقد هناك أي نوع من المناقشة. ويعتقد الهندوس أن طبيعة الناس تنجذب إلى الأساليب الشعرية مقارنة مع الأساليب الأخرى عندما يجد الهنود كتبا يترجمونها على نمط "أشلوك" استخداما أساليبهم الشعرية. لا يسهل فهم هذه السطور المترجمة لأنها في أكثر الأحيان تتغير إلى حد ما للضرورة الشعرية.١٤

الطب الهندي:

قد ذكر البيروني أن للهنود كتابا في الطب. فقد ذكر خصوصا الكتاب الهندي الذي يعرف مع اسم كاتبها "تشراك". يعتبر الهنود هذا الكتاب أكبر وأفضل من كل الكتب الأخرى حول هذا الموضوع. أنهم يعتقدون أن الكاتب "تشراك" كان رجل دين ورعا. و كان اسمه "اغنی ویش". إنه سمي بـ"تشراك" عندما تعلم الطب من أبناء "ساوتر".وهم كانوا شخصيات دينية، وكانت استفادت هذه الشخصيات الدينية الطب من الإله "إندر". وكان تعلم اندر الطب من "أسوان" الذي كان طبيب الآلهة، وكان أسوان اكتسبه من برهما الذي هو خالق الأرواح البشرية. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية لتعليم الأمراء العرب من سلالة البرامكة.١٥

بانج تانترا:

مشيرا إلى "بانج تانترا"، يقول البيروني إن الهنود لديهم براعة في مجالات متعددة تدل عليها كتبهم الكثيرة في العلوم والفنون والاجتماع والحكمة. وفي هذا السياق، يذكر البيروني المشاكل اللغوية التي واجهه في دراسة العلوم الهندية قائلا إن له رغبة شديدة في تعلم هذه العلوم والفنون. ولكن السد اللغوي يحول بين رغبته وتلك الفنون.

كان البيروني متأثرا "ببانج تانترا". يقول إن هذا الكتاب هو المعروف باسم "كليلة ودمنة" في الأوساط العربية. وقد تمت ترجمته إلى العديد من اللغات مثل العربية والفارسية وغيرها. ولكن، حسب البيروني، قام بترجمة هذه الكتاب أشخاص لم يخلوا بإدخال تغييرات و تحولات في جوهر النص حسب أهدافهم بعيدة المدى.١٦

طريق الكتابة و أدواتها لدى الهنود:

ليس هناك رواية شيء يدل على أن الهنود كانوا يمارسون الكتابة على الجلد كما كانت هذه الممارسة موجودة في اليونان وفي الاوساط العربية فيما بعد. وأما بالنسبة للهند، فاختار الناس تقنية خاصة للكتابة هناك. وخاصة في جنوب الهند حيث توجد شجرة مثل شجرة تمر. أوراقها تكون طويلة واسعة تصل إلى ثلاثة أصابع طولا. يطلق عليه إسم "تاد".يكتب الهنود على هذه الأوراق. ومجموعة هذه الأوراق بشكل كتاب تربط بالخيط لجعلها سليمة ومحفوظة من الإنتشار.

بينما في وسط الهند وشمالها، يستخدم الناس جلد شجرة تسمى "طوز". ويسمى أيضاً "بهوج". تؤخذ قطعة متواضعة منها. وتعد هذه القطعة عن طريق الدس والضرب حتى تصبح قابلة للكتابة عليها . والهنود لديهم صفة خاصة بهذا الصدد، وهي أنهم يكتبون رقما على كل صفحة. يربط الكتاب بقطعتين منفصلتين من الخشب ثم يلف هذا الكتاب بقطعة من القماش. وهكذا يتم إعداد كتاب ويطلق عليه إسم "بوثي". ويكتب الهنود رسائلهم والأشياء الأخرى على قطعة من شجرة "طوز".

ويشير البيروني إلى بعض المراجع التي تقول إنها مضت فترة من الزمان أن الهنود نسوا الكتابة بالخط الهندي الرائج في ذلك الوقت وتركوا الكتابة البتة. وترك الهنود أساليب الكتابة الخاصة بهذا الخط. ولم يكن أحد يلتفت إليه. ونتيجة لذلك، فشا الجهل في كل مكان. واصبح الناس بعيدين عن كل أشكال العلم والمعرفة. فجاء رجل وهو ابن "باراسا" ويسمى "فياس". فاخترع "فياس"٥٠ حرفا. وتقال هذه الحروف "اكشار". يقول الهنود إن الحروف كانت قليلة في البداية. ولكن مع مرور الزمان زادت فزادت.

ويشهد البيروني هذه الحكاية قائلا إن الحروف الهندية تجب أن تكون أكثر من هذا العدد كما أن لديهم علامات متعددة لحرف واحد للتعبير عن الأصوات المختلفة. اللغة الهندية لديها حروف وأصوات لا توجد في اللغات الأخرى، ويصعب التعبير عنها والأداء بها، لأن العرب لا يستطيعون إخراج أصوات هذه الحروف بالضبط، وآذاننا لا تستطيع التفريق بين صوتين مماثلين.١٧

الخط الرائج في مختلف الأقاليم الهندية:

الخط الأكثر شهرة بين الهنود يسمى "**سدها ماترك**" الذي وضع، وفقا لبعض الأقوال، في كشمير. يستخدمه الناس للكتابة هنا. و يستخدم هذا الخط في منطقة "باناراس" أيضا. باناراس وكشمير هما مركزان كبيران للثقافة الهندية والأعراف الدينية. و كذلك يستخدم هذا الخط في "مادهيا ديس" يعني في الجزء الأوسط للهند. المناطق المحيطة بمدينة "قنوج" تسمى "مادهيا ديس". وتعرف أيضا بإسم "آريا ورت". والخط الثاني الموجود في الأوساط الهندية يستخدم في منطقة "مالوه" ويسمى "ناغر". تختلف أشكال الحروف في هذا الخط عن الحروف التي تستخدم في كشمير، وباناراس ومادهيا ديس. و بالإضافة إلى ذالك،هناك خط آخر يسمى "ارده ناجري" أو "نيم ناجري". وهو خليط من الخطين المذكورين سابقا. ويستخدم هذا الخط في أجزاء من السند. والخط الآخر يسمى "مالواري" و هو يستخدم في المنطقة

"مالوشو" وهذه المنطقة جزء من جنوب السند. و هناك خط مروج آخر يسمى "سيندهو" و يستخدم في منطقة "بهموا" .

وأما بالنسبة للخطوط الرائجة في جنوب الهند، فيقول البيروني إن الخط" كنر" يستخدم في "كرنات ديس". وبينما يستخدم الخط "آندهري" في آ"ندراديس". وفي الوقت نفسه يستخدم الخط "دراويدي" في منطقة " دراويد" ، ويستخدم الخط "لاري" في منطقة "لار"، ويمارس الخط "غوري" في منطقة "بورب ديس". ويستخدم الخط "بهيك شو" في منطقة "اودن فور" لجنوب الهند. وهذا الخط يخص بالبوذيين.

ويقول البيروني أيضاً: "إن الهنود لا يستخدمون الحروف للحساب كما يستخدمها الناس في بعض أجزاء العالم حسب ترتيب الحروف. والسبب وراء ذلك هو أن أشكال الحروف في منطقة تختلف من الأشكال التي توجد في منطقة أخرى للهند. وما يستخدم للحساب في المناطق العربية هي مأخوذة من المرحلة المتقدمة للأرقام الهندية و تطلق على الأرقام إسم "انك". ولكن الكشميريين يكتبون على رأس كتبهم الأرقام التي تبدو كالأشكال و تشبه بالحروف الصينية".١٨

الأماكن المقدسة للهنود:

وقد ذكر البيروني الأماكن الدينية الشهيرة للهنود في ذلك الوقت قائلا إن معظم معابد هندوسية في جنوب غربي السند معروفة بعبادة "لينغ". والهندوس يعبدون "لينغ" إعتقادا أنه جزء لجسم إلههم "مهاديف". والمعبد الأكثر شهرة منها هو معبد "سومناث". تحضر كل يوم فيها كمية كبيرة من المياه من نهر الغانج والزهور من كشمير للتقديم أمام "لينغ". يعتقد الهنود أن "لينغ" يشفي من الأمراض العضال، وفي عبادته علاج لكل مرض.

ويقول البيروني إن السبب الآخر وراء شهرة مدينة "سومناث" هو أنه مدينة تطل على البحر فينزل فيها التجار وخاصة التجار الصينيون و الأفارقة.

إن الأسفار الدينية ليست إلزامية في الدين الهندوسي ولكنها تعتبر فعل الخيرات والحسنات. فالناس في الهند يقصدون إلى مكان مقدس أو إلى معبد كبير

أو إلى نهر مقدس. وإنهم يقومون بالعبادات والأعمال الخيرية هناك. ويسعون إلى تأدية صلوتهم وصيامهم أكثر فاكثر. يعطون البراهمة التبرعات والصدقات. ويحلقون رؤوسهم ولحيتهم ثم يعودون إلى منازلهم.

البرك المقدسة:

وفي سياق ذكر المقدسات الهندوسية، أفاد البيروني أن الهنود لديهم برك ضخمة شامخة تدل على أعلى فن العمارة في هذا البلد، ونحن في العرب، يمكن لنا أن نتصور فقط بناء البرك كتلك التي توجد في الهند. إن الهنود هم خبراء هذا الفن.

"**بركة مولتان**"

إن السكان الذين يتبعون الدين الهندوسي يقصدون البرك المقدسة ليزكوا أنفسهم روحا وجسما بعد الاغتسال في هذه البرك المقدسة. إن البركة التي تعد أفضل البرك وأزكاها هي بركة في مدينة "مولتان"(وهي تقع الآن تحت سيطرة باكستان وسيادتها). والاستحمام في هذه البركة تعتبر عبادة عظيمة.

وقد أفاد البيروني عن بركة واقعة في منطقة "ثانيسار"، وهي تعتبر مقدسا ومباركا. ويقصد إليها الناس للحصول على التزكية وتطهير الروح والجسم. وتحصل أية بركة على الشهرة والتقديس أساسا على أي حادث كبير له علاقة وطيدة مع الدين أو أن تكون إليها إشارة خاصة مذكورة في الكتب الدينية الهندوسية.

الأماكن المقدس:

"**باناراس**"

إن بعض الأماكن تكتسب أهمية بالغة بين الهندوس لكونها مرتبطة بالدين والثقافة الهندوسية منذ عصور. إن مدينة "باناراس" تعد من إحدى هذه المقدسات . إن الرجل يعتنق الرهبانية ويطلق عليه لقب "سادهو" أو "الراهب الهندوسي"، ويقضي بقية أيام حياته في هذه المدينة (كما يفعل بيننا جيران مكة، إنهم لا يزالون يبذلون جهودهم للقيام في مكة المكرمة لكسب الفيوض والبركات). إنه يود مماته في هذه

المدينة معتقدا أن الشعائر والتقاليد النهائية ستكون أفضل وأحسن من أي مكان آخر. وحسب العقيدة الهندوسية، يعاقب المجرم في أي مكان كان ولكن إذا دخل مدينة "باناراس" فيعفى ما تقدم من ذنبه.

"**ثانيسار**":

مدينة "ثانيسار" هي من إحدى الأماكن الهندوسية المقدسة. وتطلق عليها أيضاً اسم " كروك شيتر" أي "دولة كروك". كان "كروك" اسم فلاح معروف لأعمال الخير. وتنسب إليه بعض الكرامات. اشتهرت هذه المنطقة بهذه الشخصية وسميت بـ"كروك شيترا" وحصلت على مكانة كريمة بين الأماكن المقدسة. وتزداد مكانتها أهمية بسبب وقوع حرب مها بهارات في هذه المنطقة حيث أظهر "فاسوديف" خبرته وشجاعته ومهارته الحربية. وهزمت العناصر السيئة هنا. وكذلك أقرها الناس مكانا مقدسا و يقصدونها لكسب البركة والثواب.

"**ماثورا**":

تعد مدينة "ماثورا" أيضا من الأماكن الهندوسية المقدسة ولها شهرة مرموقة بين الأوساط الدينية. ويقطن عدد كبير من البراهمة فيها، أو غالبية سكانها هم البراهمة. إنها مقدسة لأن "فاسوديف" ولد ونشأ و ترعرع في قرية "ناند كول" قرب ماثورا.

"**كاشمير**":

أما بالنسبة "لكاشمير" فقد اكتفى هنا البيروني بالذكر أن الناس في هذه الأيام يقيمون بالرحلات المقدسة إلى كشمير أيضا. ولكنه قد أشار إلى تقديسها ورفعة مكانها في الأبواب الأخرى. وكما ذكر وجود أزهار كاشمير في معبد "سومنات" العظيم.١٩

وقد ذكر البيروني بالتفصيل أربع طبقات الناس في المجتمع الهندي، أرفعها و أزكاها طبقة يسمى "البرهمن": إن البرهمن له ثلاثة أدوار في الحياة. الأول يبدأ من السنة الثمانية إلى الخامس والعشرين من عمره. عندما يبلغ الولد الثامنة من

العمر يأتي إليه العلماء الهندوس. فيعلمونه الدعاء والأعراف الدينية و يؤدون المراسيم و الطقوس الهندوسية أمامه. و يلبسونه "جنيو"، وهو الخيط المقدس الذي يلبسه الولد في حفل ديني يعقد حينما يدخل الولد مرحلة التعلم والدراسة، ويعتبر هذا الخيط مباركا لحياة الولد. ثم يتم تعيين أستاذ له. هذا الأستاذ يعلمه العلوم والفنون.

وعندما يبلغ الولد الخامس والعشرين من عمره. فيلزم له أن ينهمك في الدراسة والتحصيل عند الأستاذ، و ينام على الأرضية، و يسأل الطعام من خمسة بيوت، ويأخذ منه قليلا. وفي هذه المرحلة، يجيزه الأستاذ للزواج والقيام بالحياة العائلية. ولا يجوز له أن يخلو بزوجته إلا مرة في الشهر. ولا يجوز له أيضا أن يتزوج مع بنت يبلغ عمرها أكثر من عشر سنوات. وهو يقضي ضرورة الحياة عن طريق تعليم الرجال من طبقة برهمن و تشاتري. و يلزم عليه أن لا يسأل أجرا على التدريس ولكن الطلبة بأنفسهم يقدمون له بعض الأشياء. ويعطيه الملك و الأمراء مقدارا من المال. ولا يلزم للبرهمن أن يدفع الضرائب كما يفعل الآخرون. ولكن لا يجوز له أن يملك الخيل والبقر، وكذالك لا يأخذ الربا. وحياته تعنى بالشفافية والصفاء. حياة البرهمن تجري هكذا حتى يبلغ الخمسين عاما من العمر.

وإن المرحلة الثالثة لحياة البرهمن تبدأ من السنة الخمسين من عمره حتى الخامس والسبعين. ويسلم الأمور العائلية و زوجته إلى أولاده. وإذا رضيت زوجته أن تذهب مع الزوج إلى الأماكن النأئية فلها خيار مفتوح أن تذهب مع زوجه أو تمكث مع أولادها. ويسكن البرهمن في هذه المرحلة في الصحراء والغابات. يستخدم أوراق الأشجار لستر سوءاته.

وإن المرحلة الرابعة لحياته تبدأ من االخامس و السبعين إلى نهاية عمره، هو يلبس الثياب الحمراء، و يتكئ على العصا، و يتأمل في الآفاق و خالقها، و يسيطر على الغضب والعداوة، ويتجنب الرفاقة، ولا يتكلم مع أحد. عندما يذهب لزيارة الأماكن المقدسة فلا يمكث إلا ليلة في قرية أو خمسة أيام في مدينة.

وتجيء من بعدهم طبقة "تشتري" و رتبتهم قريبة من البراهمة. هذه الطبقة تعرف بشجاعتها و بسالتها. وأهل هذه الطبقة يشاركون فى الحرب و يدافعون عن الحكومة.

ثم تأتي طبقة "وايش" في هذا الترتيب. إنهم يقومون بالتجارة، و يدفعون الضرائب، ويوفرون الأموال للحكومة.

وآخر طبقاتهم "شودر" وهى طبقة المنبوذين الذين يحترفون أدنى الحرف، من أمثال "دوم" و"تشندال" ونحوهما. وحسب الفلسفة الهندوسية، هذه الطبقة خلقت لخدمة الطبقات العليا.٢٠

هذا قليل من كثير ما أحاط به أبو ريحان البيروني في كتابه " كتاب الهند" من تنوعات ثقافة الهند و علومها و فنونها.

الحواشي:

١- حفظ الرحمان الإصلاحي، دور الهند في نشر التراث العربي، مطبعة "كتاب العربية" المملكة العربية لبسعودية ٢٠١١، ص ٨.

٢ -" الهند كما يراها أبوريحان البيروني" مجلة ثقافة الهند،المجلد ٥٩، العدد ١-٢ ، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، ص،٣٠٤

٣- قمر غفار البروفيسور، نقش أفكار أبو ريحان البيروني در دنياى امروز، السفارة الإيرانية لدى نيودلهي ٢٠١٠، ص ١٩٢

٤- نفس المصدر، ص ٢٣٢

٥- نفس المصدر، ص ١١٠

٦-" الهند كما يراها أبو ريحان البيروني" مجلة ثقافة الهند،المجلد ٥٩، العدد ١-٢ ، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، ص، ٣٠٦

٧- أبو ريحان البيروني، كتاب الهند، (أردو ترجمة) بك تاك(إسم مطبع) ميان تشمبر، لاهور ٢٠١١،ص ١٧

٨- نفس المصدر،ص ١٦

٩- نفس المصدر،ص ٢٠٣

١٠- قمر غفار البروفيسور، نقش أفكار أبو ريحان البيروني در دنياى امروز، السفارة الإيرانية ٢٠١٠، ص ٢٠٥

١١- أبو ريحان البيروني، كتاب الهند ,ص ٣٢

١٢- نفس المصدر،ص ٦٢

١٣- نفس المصدر،ص ٧٧

١٤- نفس المصدر،ص ٧٨

١٥- نفس المصدر،ص ٩٠

١٦- نفس المصدر،ص ٨٧

١٧- نفس المصدر،ص ٩٧

١٨- نفس المصدر،ص ٢٥٦

١٩- نفس المصدر،ص٢٥٨

٢٠-" الهند كما يراها أبوريحان البيروني" مجلة ثقافة الهند،المجلد ٥٩، العدد ١-٢ ، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، ص، ٣١٠